صلاة عصر في مسجد قرطبة

عام ١٣٦٨ هـ

للدكتور محمد موسى

منذ فرغت من عملي في « السوربون » وأنا أحلم بزيارة الأندلس أرضى بها العقل بالتنقيب في مكتبة « الأسكوريال » والروح بالعيش فترة من الزمن في الأرض التي ذللها أجدادنا وقامت فيها عواصم للعلم والسياسة في الإسلام . وكان كل ما شاهدت من مدريد إلى اشبيلية حيث أنا الآن يؤكد لي أن أسبانيا بلد ليس بالغربي ولا بالشرقي ، بل هو بين بين . هو حقاً بين الشرق والغرب بما احتفظ من تقاليد الأول وعاداته ، وبما تمكن فيها عن الآخر من المسيحية التي تتعصب لها تعصباً شديداً ؛ والأرض نفسها تمثل هذا أيضاً بما تنبت من الزيتون والنخيل وقصب السكر والموز ، إلى جانب مزروعات الغرب التقليدية .

لكن قرطبة عاصمة الأمراء والخلفاء شيء غير هذا كله . لقد كان القطار يسير بي من مدريد وأنا في شغل عما حولي ! كنت أعيش بخيالي وعاطفتي في قرطبة الإسلام ، في قرطبة التي صارت مقبرة لمصر من أكبر العصور الإسلامية ازدهاراً ، في قرطبة عبد الرحمن الداخل وأعقابه الأماجد ، في قرطبة ابن رشد وكبار العلماء الإسلاميين . لقد استبدّ بي الخيال ، وأسرتني العاطفة حتى خلتني مقدماً على بلد إسلامي يموج بعلماء الإسلام موجاً ؛ ولكني وصلت إليها ، فإذا الأهل غير الأهل ، والوجوه غير الوجوه ، وإذا العجمة والمسيحية هي الحاكمة المستبدة في كل شيء !

وأخيراً ، ها أنذا في المسجد الذي يمثل الشيء الوحيد الحري بالزيارة في المدينة : هذا هو « صحن البرتقال » مجمع حلقات العلماء ؛ وهذا هو « الدوان » أو الدهليز الجنبي حيث مجلس ابن رشد يشرح أرسطو ويقربه للناس ؛ وهذا هو الدهليز الشمالي حيث كانت تقام العدالة وتفصل الخصومات ؛ وبعد هذا ها هو ذا المسجد نفسه الذي يحس المرء فيه بقبس من الخلود ، حيث كان العلماء من المسلمين واليهود والنصارى يتدارسون لغة واحدة هي العربية ، ويتعلمون ويعلمون علماً واحداً هو العلم الإسلامي كما ينقل « رينان » ! كل ذلك ذهب وصار تاريخاً بعد أن كان حقيقة تملأ الأذن والبصر !

وفي وسط المسجد أقيمت الكاتدرائية ! إلا أنها على ضخامتها لم تقل من الأثر الإسلامي الخالد حتى كأنه لا يحس بها ! ومنارة المسجد التي تذهب إلى السماء ناحية الأزلية والخلود ، نحواً من خمسة وستين متراً جعلها القصب برجاً للكنيسة بما أقيم في جنباتها من نواقيس وما علاها من الصليب . إلا أن كل هذه المظاهر لم تنزعني من الجو الذي أعيش فيه ، حتى لقد صعدت المنارة وأذنت فيها بصوت سمعه من كان مني للعصر ، ثم أديت الصلاة في داخل المحراب بعد أن فتح لي خاصة ! وأظن أن رفيقي ، وهو أستاذ فاضل مستعرب قرطبي ، ظن بي الظنون ! وعلى كل فقد احترم عاطفتي ووقف هو وآخرون من المتفرجين على مبعدة !

وبجوار المسجد مقر الخلافة والخلائف الذي صار الآن مقر كبير رجال الدين . وقد تنفس عني قليلاً ما تذكرته من قول شارلكان وقد زار المسجد سنة ١٥٣٦ حين رأى الكنيسة وسطه : لقد « بنيتم هنا أثراً كان يمكن أن يبنى في أي مكان ، وأفسدتم أثراً وحيداً في العالم ! »

والمسجد ومقر الخلائف يطل كلاهما على « الوادي الكبير » التي لا تزال مياهه تجري في استحياء ! وقد عبرت القنطرة على هذا النهر إلى الجهة المقابلة التي كان العرب يسمونها La Campgne أو الريف في الجهة المقابلة . وبهذا النهر تنتهي المدينة القديمة .

بعد هذا خرجت من المسجد وزرت محلة اليهود على مقربة جداً منه ؛ وبها منزل صغير يحمل الآن رقم ١٨ رأى ابن ميمون الفيلسوف اليهودي الأشهر فيه النور ؛ وبها معبد من معابدهم بني بعد ابن ميمون ، وإن كانت الحكومة أقامت في مدخله لوحة تذكارية لمرور ٨٠٠ عام على ولادته (١١٣٥ — ١٩٣٥م) لماذا لا تقام لوحة أخرى تذكارية لابن رشد معلم وشيخ ابن ميمون!

حسبي من زيارة قرطبة هذا المسجد ، وحسبي أني عشت فيها فترة لذيذة ومؤلمة في جو إسلامي خالص حتى كنت أؤدي فيها الصلاة في وقتها في أغلب الأحوال في الفندق الذي نزلت فيه .

أنتهي الآن وأنا على سفر إلى الجزيرة ، جزيرة طريف ، لعلي أستطيع منها العبور إلى طنجة ومراكش ، ثم أعود إلى الأندلس لرؤية غرناطة والله المستعان .

محمد موسى